فى الاجتماع

الغنى والسخاء

الغنى والسخاء عدوان لدودان قل أن يتفقا أو يجتمعا : والنفس التى يتاح لها أن تجمع بينهما هى أسخى النفوس كرما ؛ وأصدقها فهما لمعنى الرحمة والحنان ؛ وأدقها شعورا بآلام الانسان فى الحياة .

وكل من الغنى والسخاء مصدر لكثير من الأعمال الجليلة الشأن العظيمة الفائدة : فبهما تنشر العلوم والمعارف ، وتنشأ المدارس والمعاهد ، وتبنى المستشفيات والملاجئ ، وتقام المشروعات وتمهد سبل الحياة : ولولاهما لما ارتفع قدر الانسان ، ولا سما ذكره ، ولا بقى أثره ، فهما ضرورتان لترقيته وإعلاء شأنه : وبهما يسمو إلى أوج الحضارة والمدنية ، ويأسو كثيرا من جراحات الانسانية .

ولا يشترط أن يكون الكريم غنيا ، لأن جل الأغنياء الذين نشروا العلم والتهذيب بين الفقراء ، وأصلحوا شئون الحياة الاجتماعية ، وأخرجوا الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم كانوا من الفقراء الذين يقتصدون من إيرادهم : وينفقون مازاد عن حاجاتهم فى أشرف المبادىء والغايات ، ومختلف المقاصد والأغراض ، وهم لا يعتمدون على المال لنيل بغيتهم ، بل يعتمدون على أنفسهم فى جل مايعمدون إليه ، وليس ثمت فى الوجود من يفلح فى معونة الفقراء : ورفع غير الشقاء عن رقاب الؤساء ، إلا من يبذل لهم نفسه قبل نفيسه : وهذا شأن المصلحين العظماء الذين يقوم عليهم أساس الحياة الصحيحة : ويهون كثير من متاعبها وآلامها .

على أن كثيرا من أصحاب الأموال وأرباب الثروات الواسعة ليسوا إلا حراسا لها يخزنونها ويقومون عليها ، ويرونها بأعينهم : ولا يستطيعون أن يمسوها بأيديهم ، وليس أدل على الذلة من حالة كهذه فحب المال شهوة وعبد الشهوة أذل من عبد الرق .

وبعض الناس يجمع الثروة الكبيرة وهو لا يعرف أن يكتب اسمه ثم يموت تاركا أمواله لأولاده وهم لم يتعبوا فى كسبها ، وليس لهم فيها الشغف الذى كان لأبيهم ؛ فيبددونها بيد التبذير ذات اليمين وذات الشمال ، غير حاسبين للزمن حسابا ، ولا متوقعين أن يصابوا منه بالمحن والكوارث .

ولكن الحر يستعبد المال وينفقه عن سعة فى قضاء الحاجات ، ولا يضن به فى سبيل المنافع العامة لأمته وبلاده ، ومثل هذا يجب أن يسجل اسمه فى سجل عظماء الرجال الأبرار

والتاريخ حافل بكثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين وغيرهم ممن ماتوا ولم يتركوا فى خزائنهم من الذهب والفضة ماينتفع به أبناؤهم من بعدهم .

وليس الاشتراك فى الصحف والمجلات ، واقتناء الكتب والمؤلفات ، إلا نوعا سامياً من التضحية الأدبية والمنفعة العامة التى يجب أن يبذل الانسان فيها المال بسخاء من غير تردد ولا توان ، ولو كان ضنينا به على أعز المرافق التى يتصل بها من النواحى الأخرى .

وكم من غنى بات يحن إلى الأيام التى تقاضاها قبل أن يغتنى ، فأن أسعد أوقات الانسان الأيام التى حارب فيها الفقر وأخذ يتغلب عليه ، فأنه يكون حينئذ كريما ساميا فى تهذيب نفسه وتثقيفها ، وأما المال فيستخدمه فى قضاء حاجاته ، ويتصدق به على الآخرين ابتغاء وجه الله غير منتظر من وراء ذلك جزاء ولا شكورا .

وكم من غنى بات يئن من عبء الغنى وهمومه ، ويحسد الفقراء على فقرهم ، ولا سيما إذا ابتلى بما يبتلى به الأغنياء من اعتلال الصحة ، واشتغال البال ، والحذر من الناس واستهدافه لطامعين والحاسدين !!

على أن الفقر ليس بعار ولا منقصة إذا كان الفقير حرا شريف النفس ، بل كثيرا مايكون الفقر شرطا للنجاح والشهرة والسعادة الحقيقية ، وتاريخ الانسان أصدق شاهد على صحة ماتقول ، فان أشجع الناس وأصدقهم عزيمة ، وأكملهم مروءة أكثرهم من الفقراء لا من الأغنياء ، اللهم إلا أفذاذ قليلون فطروا على أشرف المبادىء وأسمى الغايات ، فهؤلاء يجدون لذتهم فى إغاثة الملهوف ، وسد عوز المحتاجين ، ونشر المعارف والآداب بين الفقراء ، والمساكين ، والعناية بتهذيب النفوس واقتسال الساقطين .

وخير الأمور الوسط بين الفقر والغنى ، وخير منه ومن كل شىء القناعة ، فأن العبد حر إذا قنع ، والحر عبد إذا طمع ، ولا يعاب الفقير إلا إذا ركن إلى الكسل وجنح إلى التوكل مكتفيا بأموال المتصدقين يتعيش منها ، كما لا يعاب الغنى إلا إذا كزيده من الصدقات ، وخرج به غناه عن جادة الصواب فأنفق أمواله فيما ليس وراءه نفع ولا فائدة ، بل قد يعود عليه بالخسران والبوار !

(الشبين) م . ا . ع

الأحلام

فأذا ما أقبل الدجى وغفا كل ساهر ، وهجعت الأجسام . وركنت العقول ، وبسط الليل جناحيه على العالم المستكن الهاجع كانت هناك حركة أخرى هي أكثر ضجة وأعظم صخبا من تلك التي نراها في وضح النهار وقليل من الليل ، حركة مهما كانت شدتها وروعتها أمام المرء فأنها لا تتعداه رغم زعمه باشتراك غيره فيها واستعانته به .

تلك الحركات المحسوسة روحا ، اللاوقعية حسا ، هي ما نراه في الأحلام .

قال علماء النفس إن عقل الأنسان ينقسم إلى قسمين . قسم يفكر ويعمل ويدبر آونة في صواب وأخرى في زلل ، وقسم هو عبارة عن المستودع الذي فيه يختزن الأول حاجته من المعلومات - وهذا التعبير جد معقول - وقد اصطلحوا على تسمية الأول « الفكرة » والثاني « الحافظة » ومهما اختلف كل قسم في وظيفته فلا مراء في اتصال ما بينهما بحكم وجودهما في نقطة واحدة ومحيط واحد وهو المخ .

غير أن بعض علماء النفس الجدد يقولون بوجود « عقل باطن » منفصل كلية عن العقل الظاهر الذي نعرفه ، فليس لما يأمر به صلة مباشرة بالأرادة ، هذه النظرية تحتاج إلى براهين ساطعة عزيز على هؤلاء العلماء « في رأيي » إقناع السواد الأعظم بها . وأنا شخصياً أستطيع تبديل كلمتهم هذه «العقل الباطن» بكلمة أقرب وأدق في التعبير وهي «وحي الغريزة» .

معلوم أن لكل إنسان من الميول والرغبات مالو أراد تحديدها وإخراجها من حيز الأماني والخواطر ووضعها أمامه كآمال يبتغي الوصول إليها لاحتاج منه ذلك مجهوداً هائلا . ومعظم البشر يعجز لسانه ويتقاصر قلمه حينما يقف هذا الموقف ، وكل إنسان بطبيعة وجوده محب لأن يكون شيئاً معدوداً ولأن يسير العالم وفق إرادته ويتبع مبادئه التي لم يحصرها هو نفسه ، وليس له إلى ذلك سبيلا ، فأذا تحرك في نفسه عامل من العوامل أو دفعته نزعة معينة لأمر معين « كأن يحجم عن الاشتغال بالتجارة وهو في الوقت نفسه موقن بوحي غريزته أن فيها الخير ، وكأن يسير في طريق يعلم الأمان فيه ولكن شعوره يوجس منه خيفة ثم لا يلبث أن يتحقق بأصابته يمكروه » ففي مثل هذه الأحوال تجده وقد قصر فهمه فلا يمكنه تحديد ما يريد أو ما يشعر ، فتجده في تنفيذ ما أراد مرتبك الفكر فيما تمليه عليه غريزة البشرية التي هي في مثل هذه الأحوال عبارة عن وهم قليس له القدرة على التحكم فيها . وأمثال هذه الحوادث كثيرة وأحوالها متباينة مختلفة

أقول إن أمثال هذه الحالة مبعثها « وحى الغريزة » فهلا يصح القول بأن كثيرا من الناس — حتى المثقفين — من هؤلاء العلماء شعروا بأمثال هذه النزعات فعللوها بذلك التعليل الذى أطلقوا عليه اسم « العقل الباطن » ؟ . هذا شىء أنا مقتنع به فالعقل فى مجمله واحد رغم أنه مقسم بحكمة الله العلى القدير الذى جعل منه الحافظة والذاكرة والمخيلة والمفكرة . وليس مبحثى الآن من التشعب بحيث أخوض فى هذه الأقسام وإنما جعلت القصد الأسمى وراء « الحافظة » و« المفكرة » وهما المسميان العقل الباطن والعقل الظاهر » وعلاقتهما بالأحلام

* * *

إذا اذاب النور مختفيا ونشر الليل جناحيه فكان المساء ، طلب الانسان الراحة فى النوم ولم تزل مشاغل الحياة عالقة بفكره حتى يلج المنطقة الصغرى . حينئذ نجد ناحية من المخ لا تزال مسيطرة على الجسم الهاجع تنظم حركة التنفس ، ومن هذا يثبت أن جميع الأجزاء البشرية والعقلية خامدة عدا ناحية من المخ يقظى عامله ، وبديهى كما قلنا أن المخ كله فى محيط واحد متصل الأجزاء ، لذا كان من المسلم به اتصال هذه الناحية العاملة بالعقل الباطن ومهما كان الانسان من هدوء الضمير قبل النوم فلا يمنع هذا كما أسلفنا من وجود بعض الآمال العالقة بالمفكرة « العقل الظاهر » وهذه الآمال كثيرا ما يتحرك بها العقل الباطن باختيارها من مخزوناته « وغالب ماتوصل البعض لحل العويص من المشاكل أثناء نومه وأحلامه ، حتى إذا كانت اليقظة سار على هدى ما رأى وهو مطمئن البال كأنه فكر جديا فى الأمر وقتله بحثا وتمحيصا »

فمعظم الأحلام منبعها الحافظة التى هى ملأى بمختلف المواضيع وشتى المعلومات ولاشىء يرفه النائم مطلقا مهما كان جديدا عليه فى زعمه إلا وله اتصال وثيق بالماضى وربما البعيد منه

وفى بعض الأحايين يشترك العقل الظاهر مع الباطن فتجد الثانى يخرج الفكرة من خزانته ويشغل فيها فيتحرك الأول بها بشكل لا يخرج عن أقصى ما تمناه المرء فى يقظته ، كأن يبدأ الباطن فى تحريك ناحية الأمل فى ربح مبلغ من النقود يعدل به كذا وكذا فيلتقطها الظاهر ويسير بها فى التيار الذى يحيه الانسان إلى غاية ما يتمنى . وهذا النوع ومثله من الأحوال كثيرا ما يخلط المفسر بينه وبين الرؤيا

وهناك نوع من الأحلام لا هو من الحافظة ولا من الذاكرة وإنما من المخيلة رأسا . وهذا النوع كثيرا ما تكون حوادثه مروعة أو غريبة مدهشة أو مضحكة

كأن ترى نفسك راكبا سمكة كبيرة مسرجة تشق بك عباب البحر غير هيابة ولا وجلة أو تراك طائرا فى الجو وقد برزت من أجنحة عظيمة ورائك جيش عرمرم يسير الهوينا على

أقدامه ، أو ترى أن عفريتا من الجن يدفعك بشدة ليرديك فى هاوية سحيقة فلا تزال تجاهده حتى يغلبك فتسقط وقد تمثل لك الموت فى روعته ، ثم لا تلبث إلا قليلا حتى تصحو من نومك إثر اصطدام جسمك بالأرض واقعا من السرير ، فتقوم لاعنا هذا العفريت الذى سبب لك تلك الرضوض وربما اعتزمت عمل سياج للسرير يقيك أمثال هذه الحوادث

وهذه الأحلام لا محل لتعليلها إلا بأنها أضغاث أحلام لصدورها من المخيلة رأسا

ومما تقدم نستطيع أن نخرج بنتيجة واضحة هى :

الأحلام تصورات أو تدبيرات أو ذكريات يحركها العقل الباطن مشتركا أحيانا بالظاهر . وتنفرد المخيلة كثيرا إلا فى النادر حيث تشترك أو يشركها الظاهر معه

وهنا يجب ألا نغفل ما يأتيه الأطفال الصغار من أعمال مدهشة أثناء النوم ؛ كأن يتكلم الطفل بصوت عال مسموع يحدث فى وضوح وجلاء كل ما مر عليه فى يومه . أو تراه يسير فى أنحاء الغرفة وزواياها يبحث منقبا عن موزة خبأها من أخيه نهارا حتى إذا أعياه البحث وأقعده اليأس انقلب باكيا منتحبا فتصحو أمه وتأخذه بين يديها فى رفق ، وفى أقل من لمح البصر يرتد جسدا هادئا وتلك أعمال تدل على أن الحافظة أقوى بكثير فى الطفل من المفكرة ، بخلاف الرجل العادى إذ تكون المفكرة أقوى فتمنعه من فعل ما يأتيه الصغار فى أحلامهم اللهم إلا النادر : وهذا القسم من الرجال حينما تحاول إقناعه فى اليوم التالى بأنه فعل فى نومه ما فعل وينكر قولك على طول الخط

أما ما يقال بوجود عقل باطن يعمل بالنهار فى الصحو وليلا فى الأحلام ولا سيطرة للانسان عليه فهذا ما لا أصدقه ولا يمكن نفيه ، وهل من المعقول أن يسيرنى فى يقظتى عقل لا أتحكم فيه أو به ولا أحكم عليه بل أنا خاضع له لا حول لى ولا قوة . ؟ اللهم إلا إذا كان وحى الغريزة فى زعم بعض الناس عقلا باطنا كما يقولون وأنكر ..

محمد محمد صالح
سكرتير تحرير الأهرام